مجلة جامعة الملك سعود، م (٢١)، العلوم التربوية والدراسات الإسلامية. (٢)، ص ص٣٣٩-٣٥٩ الرياض (٢٠٠٩م/١٤٣٠هـ)

المقومات المعنوية للمجتمع المسلم في ضوء سورة الحجرات

يحيى ضاحي علي شطناوي

أستاذ مساعد، قسم أصول الدين، كلية الشريعة والدراسات الإسلامية

جامعة اليرموك، إربد، الأردن

(قدم للنشر في ٨/ ٢/١٤٢٨هـ، وقبل للنشر في ٤/٩/١٤٢٨هـ)

ملخص البحث. هدفت الدراسة إلى بيان أهمية المقومات المعنوية في بناء المجتمع المسلم واستقراره، وأنها الركيزة الأساسية لتقدمه وتواصل نموه، وتبقى المقومات المادية روافد إضافية، لكنها ليست أساسية في تماسك المجتمع، بل ربما كانت عقبة في طريقه الحضاري وجاذبا يشده للوراء.

وعرضت الدراسة لأنموذج حي من خلال سورة الحجرات، التي تحدثت عن أهم مقومات المجتمع المعنوية، حيث قام بالفعل مجتمع الصحابة على أساس من هذه المقومات، فمثّل خير جيل لخير أمة أخرجت للناس، على الرغم من قلة الموارد والإمكانات.

المقدمـــــة

الحمد لله رب العالمين وأفضل الصلاة وأتم التسليم على نبينا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين وبعد:

فإن أي مجتمع له مقومات وركائز تحدد معالمه وموقعه بين أمم الأرض، وتحكم أفراده، ليبقى قويا متماسكا، ابتداء بالعقيدة التي توجد وحدة الفكر بين أفراده وجماعاته، مرورا بالتشريعات التي تحكم تصرفات أفراده - وفق أنظمة يقوم بالإشراف على تنفيذها قيادة راشدة - وانتهاء بالأخلاق التي تضمن سلامة التعامل بين الأفراد.

والمجتمع المسلم أحد هذه المجتمعات له مقوماته ومكانته، قد هيأه بها رب العزة، ورباه عليها من خلال كتابه الكريم وسنة نبيه المطهرة.

ومن فضل الله تعالى على الأمة أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قام بنفسه ببناء المجتمع الإسلامي الأول، وعلمنا كيف يتكون المجتمع وما المقومات التي يجب أن تتوافر فيه.

ومن السور التي كان لها دور في تربية المجتمع المسلم وبيان مقوماته، سورة الحجرات التي تحدثت عن أبرز المقومات المعنوية، فأظهرت مكانته وحددت معالم مسيرته، فكانت جديرة بمزيد عناية من خلال دراسة مستقلة، فبرزت فكرة هذا البحث الموسوم بـ: "المقومات المعنوية للمجتمع المسلم في ضوء سورة الحجرات".

ولا شك أن العلاقات المعنوية التي تقوم على المودة والرحمة بين أفراد المجتمع هي التي يقوم عليها بنيان الجماعات الإنسانية، وهي التي تشبه السور المنيع الذي يحمي المجتمع.

هدف البحث

يهدف البحث إلى:

- إبراز معالم المجتمع الحق الذي بناه النبي صلى الله عليه وسلم، لكي نرى الأسس التي توافرت فيه.

- الوقوف على مقدار تطبيق تلك المعايير في واقعنا المعاصر، أملا في استدراك النواقص والوصول إلى المجتمع الأمثل بحول الله وقوته.

إشكالات الدراسة

تكمن إشكالات الدراسة في الإجابة على الأسئلة الآتية:

هل المقومات المعنوية أهم من المقومات المادية لتماسك المجتمع؟

هل المقومات المادية كافية لإقامة مجتمع فاضل ينعم بالأمن والاستقرار؟

هل للدين أثر في احترام القانون، وهل القوانين وسلطة الحكومات كافية لإقامة مجتمع راشد؟

هل يتميز المجتمع المسلم عن المجتمعات الأخرى؟

منهج الدراسة

تقوم الدراسة على المنهج الاستقرائي، وذلك باستقراء آيات السورة الكريمة، ثم استنباط المقومات المعنوية من خلالها، وإدراج الآية موضع الشاهد تحت كل مقوم، دون التقيد بترتيب آيات السورة.

الدراسات السابقة

هناك العديد من الدراسات التي أفردت سورة الحجرات بالدراسة، أو تحدثت عن المجتمع وأسسه بشكل عام، ومن أبرزها:

١- سورة الحجرات، دراسة تحليلية، للأستاذ الدكتور محمد علي حجازي، وقد سلك المنهج التحليلي في دراسته لآيات السورة من حيث المعاني اللغوية والمباحث البلاغية ووجوه القراءات، ويقع الكتاب في ٢٤٢ صفحة من القطع المتوسط.

٢- نظرات في سورة الحجرات، لمحمد محمود الصواف، وهي عبارة عن نظرات ألقاها المؤلف على السورة الكريمة، فأبرز الآداب العالية والمثل النيرة التي تقود الإنسانية إلى الكمال والعلياء، وذكر أهم أغراض السورة ثم بدأ بشرح آيات السورة آية آية، ويقع الكتاب في ١٩٢ صفحة من القطع الصغير.

٣- في ظلال الحجرات، لمحمد علي قطب، وقد قسم السورة إلى مقاطع، وبدأ بشرح آيات المقطع بعد أن يضع عنوانا له يكون في العادة كلمة من آيات ذلك المقطع، ثم يذكر خواطره حول الآيات، ويقع الكتاب في ١٢٠ صفحة من القطع الصغير.

٤- تأملات في سورة الحجرات، لصفوت عبد الفتاح محمود، وقد فسر السورة الكريمة آية آية، مبينا أسباب النزول والمسائل التي يستنبطها من الآية، وإذا كان في الآية حكم فقهي فإنه يتوسع فيه، ويذكر بعض الأمور التاريخية، مثل حديثه عما جرى بين علي ومعاوية رضوان الله عليهما، ويذكر بعض اللطائف المستنبطة، ويقع الكتاب في ١٥٢ صفحة من القطع المتوسط.

٥- المجتمع الإسلامي: أسس تكوينه- أسباب ضعفه- وسائل نهضته، للدكتور أحمد شلبي، وقد استعرض أحوال العالم قبل بعثة النبي صلى الله عليه وسلم، ثم تحدث عن تكوين الفرد المسلم قبل الهجرة وبعدها، مبينا أسس تكوين المجتمع الإسلامي من المسجد والمؤاخاة والقدوة الحسنة والنظام الإقتصادي مع مقارنته بالنظامين الرأسمالي والشيوعي، ثم تحدث عن أسباب ضعف العالم الإسلامي، وأخيرا وسائل نهضته، ويقع الكتاب في ٣٤٩صفحة من القطع المتوسط.

٦) قواعد البناء في المجتمع الإسلامي، للدكتور محمد السيد الوكيل، حيث ذكر الأسس التي تشد أركان المجتمع الإسلامي، مثل العقيدة ووحدة الفكر والمحبة والتعاون والاهتمام بالنشء، وتحدث عن مراحل التربية وما يعترضها من مشكلات، ثم ذكر الروابط الدينية والاجتماعية، ويقع الكتاب في ١٦٨صفحة من القطع المتوسط.

وبعد البحث والتحري لم أقف على دراسة خصصت المقومات المعنوية بحديث مستقل، فكانت فكرة هذا البحث أملا في خدمة هذا الجانب ليضاف إلى الجهود السابقة.

خطة البحث

اقتضت طبيعة البحث أن يتكون من مقدمة وتمهيد وخمسة مطالب وخاتمة

المقدمة، وتحوي: أهداف البحث، وأهميته، وإشكالاته، والدراسات السابقة، ومنهجه، وخطة الدراسة

التمهيد: بيان مصطلحات البحث

المطلب الأول: المقوم القيادي

المطلب الثاني: المقوم الاجتماعي

المطلب الثالث: المقوم الأخلاقي

المطلب الرابع: المقوم الإيماني

المطلب الخامس: المقوم النفسي

الخاتمة: النتائج والتوصيات

والله نسأل أن يكون العمل خالصا لوجهه الكريم ومنه سبحانه نستمد العون والسداد.

التمهيد

يرى الباحث أن من المناسب إلقاء بعض الضوء على الكلمات الواردة في عنوان البحث لمعرفة المراد منها، فالمقومات جمع مقوم وهي: المبادئ أو الأصول أو الركائز التي يقوم عليها المجتمع وهي كثيرة[1]، والمعنوية: كلمة محدثة تعني غير المادية المحسوسة، (مصطفى، ١٩٨٦م).

وأما المجتمع فيعرفه علماء الاجتماع بأنه عبارة عن: جماعة منظمة من الناس مرتبطة بروابط تضامنية في شكل أنساق للحياة، تقام لتوفير إمكانية التفاعلات الطبيعية من خلال نظم تضمن لهم توفير متطلبات حياتهم والدفاع عن أنفسهم.

وقيل هو: نسق مكون من العرف المنوع، والإجراءات المرسومة، ومن السلطة والمعونة المتبادلة (الجولاني، ١٩٩٧م).

ويمكن تعريفه باختصار: كل نسيج مكون من صلات اجتماعية. (المصري، ١٩٨٦م).

وحديثنا هنا عن المجتمع المسلم الذي يستمد تصوراته من كتاب الله تعالى وسنة نبيه صلى الله عليه وسلم، ويمكن تعريفه بأنه: ذاك المجتمع الذي يتميز عن المجتمعات الأخرى بنظمه الخاصة وقوانينه القرآنية وأفراده الذين يشتركون في عقيدة واحدة ويتوجهون إلى قبلة واحدة.(٥، ص١٧)

وأما سورة الحجرات فهي السورة التاسعة والأربعون في ترتيب سور القرآن الكريم، وهي سورة مدنية باتفاق أهل العلم، وقد نزلت في السنة التاسعة للهجرة، وسميت بهذا الاسم في جميع المصاحف وكتب السنة المطهرة، وهي أول المفصل عند الشافعية وأحد الأقوال عند المالكية والحنفية (البقاعي، ١٩٩٢م) ويبلغ تعداد آياتها ثماني عشرة آية، تحمل في ثناياها معاني جليلة وحقائق كبيرة تفوق حجمها، واختصت بخمسة نداءات للمؤمنين من بين تسعة وثمانين نداء في القرآن كله، ونداء واحد للناس من بين ثمانية عشر نداء.

ولاسم السورة الكريمة دلالة على مضمونها، إذا إن الحجرات جمع حُجْرة وهي الرقعة من الأرض المحجورة بحائط يحوطها، وتسمى حظيرة الإبل بالحجرة، (الفيروزآبادي، ١٩٨٧م مادة (حجر)) وفائدة الحجر المنع، إذ الحجر على مكان ما يحفظ

---

(١) من هذه المقومات: التوحيد والأخوة والعدل والمساواة والحرية ووحدة الأرض واللغة والتاريخ والمصالح، ولن يتطرق الباحث إلى الحديث عن كل المقومات لأن الدراسة مقتصرة على المقومات من خلال سورة معينة.

متاعه من العبث والضياع، ومن ذلك حِجْر إسماعيل.

وكذا المجتمع المسلم له مقومات تحفظه، وتمنع أفراده من الزيغ والانفلات، حتى يظل مجتمعا مبنيا على قواعد راسخة، تجعل من العسير على الخارجين عليه اختراقه والتعدي عليه.

وأطلق اسم الحجرات على السورة مراعاة لحجرات النبي صلى الله عليه وسلم التي ذكرت في السورة، فإن تسمية سور القرآن يراعى فيها مضمونها الذي ذكر فيها من نادر أو مستغرب أو بما هو مشتهر فيها. (الزركشي، ....).

والحجرات بيوت النبي صلى الله عليه وسلم التي يسكنها ويأوي إليها وتجمعه بأهله، والسورة تنبه على أن لهذه البيوت حرمات يجب أن تصان، وآداب يجب أن تراعى، ومن لم يحافظ عليها فلا عقل له.

وبعد هذا التمهيد المختصر يبدأ الباحث بالحديث عن المقومات المعنوية التي ذكرت في سورة الحجرات تحديدا، حتى لا نخرج عن عنوان البحث.

المطلب الأول: المقوم القيادي

لابد لأي مجتمع من قيادة رشيدة تسوس أفراده، وتسخر جميع طاقاتها لحمايتهم، وبالتالي تكون أوامرها محل تقدير وقبول لدى الناس، في ضوء قواعد الشرع الحنيف، وبغير ذلك ستعم الفوضى أرجاء المجتمع.

ونظرا لأهمية ذلك الأمر فقد عنيت الشريعة بتنظيم علاقة الراعي بالرعية، فأشارت السورة الكريمة لهذا المقوم عند قوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تُقَدِّمُواْ بَيْنَ يَدَيِ ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَۚ إِنَّ ٱللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ۝١ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَرْفَعُوٓاْ أَصْوَٰتَكُمْ فَوْقَ صَوْتِ ٱلنَّبِيِّ وَلَا تَجْهَرُواْ لَهُۥ بِٱلْقَوْلِ كَجَهْرِ بَعْضِكُمْ لِبَعْضٍ أَن تَحْبَطَ أَعْمَٰلُكُمْ وَأَنتُمْ لَا تَشْعُرُونَ ۝٢﴾ (الحجرات: ١- ٢).

وتصدير الخطاب بالنداء يدل على أهمية الأمر وضرورة الاعتناء به، كما أن وصف المخاطبين بالإيمان يشعر بعلو شأنهم وإشعارهم بضرورة التقيد التام بالأمر وعدم الإخلال به. (الألوسي، ١٩٨٥م)

وقد تعددت الأقوال في سبب نزول الآية الأولى(الطبري، ١٩٨٦م)، ولكن أيا كان السبب فقد حصل تقدم بين يدي الله ورسوله من قِبل بعض الأصحاب، وأرشدت الآيات إلى وجوب اتباع النبي صلى الله عليه وسلم والاقتداء به مهما كانت الظروف، وعدم الاحتجاج بأي سبب ولو كان من وجهة نظرهم وجيها.

ويلحظ أن النداء الأول يهدف إلى تقرير جهة القيادة ومصدر التلقي، بينما يهدف الثاني إلى تقرير ما ينبغي لتلك القيادة من أدب وتوقير، وكلا النداءين يعد أساسا لكافة التوجيهات والتشريعات التي ستأتي في السورة الكريمة (قطب، ١٩٨٦م).

ولاشك أن هذا أساس مهم للمجتمع المسلم ومقوم لا يمكن التغاضي عنه، فلكي تنضبط أحواله وتسير أموره نحو التقدم والرقي، لابد من قيادة تسوس أموره بالعدل والإنصاف، ولابد من سماع ما يصدر عن تلك القيادة من تعليمات وتنفيذها، وبذلك يعلو كعب المجتمع ويجد له موقعا بين سائر المجتمعات.

والآيات الكريمة وإن تحدثت عن الآداب مع القيادة المتمثلة في رسول الله صلى الله عليه وسلم، فإن ذلك يستتبع مراعاة ذلك مع قيادات الأمة، كما قال تعالى: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَطِيعُواْ ٱللَّهَ وَأَطِيعُواْ ٱلرَّسُولَ وَأُوْلِي ٱلْأَمْرِ مِنكُمْ ﴾ سورة النساء آية٥٩، فإذا ما حكم الولاة بالحق والعدل فحق على الرعية السمع والطاعة، بل تصبح تلك الطاعة قربة يتقربون بها إلى الله تعالى، ولا يحتالون عليها بشتى الوسائل، كما هو الشأن مع القوانين الوضعية، وهذا أمر بيّن لا يخفى، ويمكن لأي منصف أن يقارن بين سلوك الفرد في الحالين، ليجد الالتزام من عدمه، وكذا مقارنة سلوك المسلم وغير المسلم، ليجد التزام الأول بالأوامر الشرعية عن طواعية مع عدم وجود رقابة، واحتيال الثاني على قوانين بلده إذا ما غابت الرقابة، ومن خير ما يمثل به في هذا المقام: المقارنة بين تحريم الإسلام للخمر و مشروع الحكومة الأمريكية لمنعه في بدايات القرن العشرين، ففي الحالة الأولى رأى الناس مدى استجابة الصحابة للأمر بالسرعة الفائقة ودون أية تكاليف تذكر، بينما في الحالة الأخرى بذلت الحكومة الأمريكية النفقات الباهظة وفرضت الغرامات وسجنت العديد من الناس، لينتهي المشروع في نهاية المطاف إلى الفشل الذريع مما اضطر الحكومة أخيرا لسحبه من أساسه،(الندوي، ١٩٦٥م) وكذلك ما تناقلته وسائل الإعلام من زيادة عدد الجرائم بعد انقطاع التيار الكهربائي عن مدينة نيويورك الأمريكية عدة ساعات، لأن أجهزة الإنذار تعطلت، ورأت الشرطة أنها عاجزة عن السيطرة على الوضع، وما ذاك إلا لأن الرقابة البشرية ضعيفة، ولأن التزام الناس بالقانون كان بدافع الخوف وليس بدافع الإيمان، وفرق كبير بين الدافعين، فإن الذي يؤدي واجبه خوفا من السجن أو العقوبة المالية، لا يلبث أن يهمله متى اطمأن إلى أنه سيفلت من طائلة القانون، وهذا مشاهد في قضايا كثيرة على صعيد الحياة العملية، فتجد سائق المركبة يتقيد بإشارات المرور إذا شعر أن أحدا يراقبه، وإذا خلا له الأمر لا يأبه لقواعد المرور، وتجد من يقلل من دخله ليتهرب من دفع الضريبة المترتبة عليه، وهكذا في أمور كثيرة معروفة لدى الناس، يحتالون بشتى الوسائل على تلك الأنظمة، بينما تجدهم في أوامر الشرع يتقيدون بها دون رقابة، فتجد الشخص يسأل عن مقدار الزكاة المترتبة عليه ويذكر جميع ما يملك عن طواعية، ويخرج صدقة الفطر، ويلتزم بالصيام حتى لو كان وحده لا يطلع عليه أحد.

وأما الصحابة الكرام رضوان الله عليهم فقد كان امتثالهم لأوامر قائدهم صلى الله عليه وسلم،

مضرب الأمثال، ونال إعجاب العدو قبل الصديق، فعلى سبيل المثال نجد معاذ بن جبل رضي الله عنه يقدّم كتاب الله وسنة رسوله على رأيه واجتهاده لما بعثه النبي صلى الله عليه وسلم إلى اليمن قاضيا[٢]. فقد روى الترمذي وأبو داود بسندهما أن رسول الله صلى الله عليه وسلم لما أراد أن يبعث معاذا إلى اليمن، قال: كيف تقضي إذا عرض لك قضاء؟ قال: أقضي بكتاب الله، قال: فإن لم تجد في كتاب الله؟ قال: فبسنة رسول الله صلى الله عليه وسلم، قال: فإن لم تجد في سنة رسول الله صلى الله عليه وسلم ولا في كتاب الله؟ قال: أجتهد برأيي ولا آلو، فضرب رسول الله صلى الله عليه وسلم صدره، وقال: الحمد لله الذي وفق رسول رسول الله لما يرضي رسول الله" (١٤، ص٢٣٣ حديث رقم ١٣٢٧، و١٥، ص٨٣٠ رقم٣٥٩٢)

قال الإمام ابن كثير معلقا على حديث معاذ: "فالغرض منه أنه أخر رأيه ونظره واجتهاده إلى ما بعد الكتاب والسنة، ولو قدمه قبل البحث عنهما لكان من باب التقديم بين يدي الله ورسوله" (ابن كثير، ١٩٨٧م).

وإن وجود الأنظمة والأحكام مع وجود الأفراد لا يشكل مجتمعا. ما لم تنفذ هذه الأنظمة وتطبق على الأمة، وما لم تباشر الأمة العمل بما فيها وتدير حياتها على وفق ما تدعو إليه، وما لم تمكن الأمة لهذه النظم من الاستقرار في الداخل والدفاع عنها عند مهاجمتها من الخارج (البهي، ١٩٨٥م).

كما ينبغي أن ينشغل أفراد المجتمع بالعمل الجاد الهادف دون إشغال قياداتهم بأمور لا طائل من الخوض فيها أو إضاعة الوقت في الحديث عن أمور لم يحن وقتها بعد، فإن لدى الأمة الإسلامية من القضايا المهمة الشيء الكثير، لأنها المستخلفة في الأرض والوارثة لدين الله تعالى (كنتم خير أمة أخرجت للناس تأمرون بالمعروف وتنهون عن المنكر وتؤمنون بالله) سورة آل عمران آية ١١٠

وهذا يفسر لنا كيف ظل ذلك المجتمع قويا منيعا، وكيف تحطمت على أسواره كل المؤامرات الداخلية والخارجية، ولم تتسرب أيا منها إلى صدور أفراده.

ولهذا كان من الأهمية بمكان قيام المجتمع المسلم على أرض الواقع ليراه الآخرون ويكون أنموذجا حيا يمكنهم من السير على منهاجه، وهذا أجدى نفعا وأعمق أثرا وأفضل دعاية يمكن تقديمها للإسلام تفوق

---

(٢) وهكذا كان منهج الصحابة الكرام، فمثلا في حجة الوداع كان النبي صلى الله عليه وسلم يسألهم عن اليوم الذي هم فيه والشهر والمكان، وهم يعلمون الجواب، غير أنهم تخوفوا من أن تكون الإجابة فيها نوعا من التقدم بين يدي الله ورسوله، فما زادوا على قولهم: الله ورسوله أعلم، بل إنهم رضوان الله عليهم كانوا يفرحون بمجيء الأعرابي يسأل النبي صلى الله عليه وسلم ليستفيدوا الجواب، لأنهم كانوا على غاية من التحرج في طرح السؤال.

مئات المرات ما يقوم به الخطباء والوعاظ والمحاضرون في هذا المجال، على عِظم ما يقوم به هؤلاء الكرام.

المطلب الثاني: المقوم الإيماني

بعد الأدب مع القيادة لابد من تشريعات يسير عليها الإنسان في حياته عمليا، تكون بمثابة المنارة التي تنير له طريقه إلى السعادة والرفعة، دون الركون إلى الأقوال والشعارات.

قال تعالى: ﴿ ۞ قَالَتِ ٱلْأَعْرَابُ ءَامَنَّا ۖ قُل لَّمْ تُؤْمِنُوا۟ وَلَٰكِن قُولُوٓا۟ أَسْلَمْنَا وَلَمَّا يَدْخُلِ ٱلْإِيمَٰنُ فِى قُلُوبِكُمْ ۖ وَإِن تُطِيعُوا۟ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ لَا يَلِتْكُم مِّنْ أَعْمَٰلِكُمْ شَيْـًٔا ۚ إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿١٤﴾ إِنَّمَا ٱلْمُؤْمِنُونَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ ثُمَّ لَمْ يَرْتَابُوا۟ وَجَٰهَدُوا۟ بِأَمْوَٰلِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلصَّٰدِقُونَ ﴿١٥﴾ ﴾ (الحجرات: ١٤- ١٥).

جاءت هذه الآيات لتسهم في إعلاء رفعة المجتمع عن طريق بيان أصول الإيمان الصحيح وأثره في تطبيق الأحكام التشريعية، والإشارة إلى أن التغني بالشعارات البراقة لا يغني شيئا، ولابد من بروز الأفعال الحقيقية على أرض الواقع التي ترفد المجتمع بالفاعلية الإيجابية.

وهو منهج فريد في بيان ما يجب على الأفراد من عمل، وما لهم من حظوة نتيجة تلك الأعمال، فالله تعالى لا يضيع عمل عامل ولا ينقص منه، بل يبارك فيه ويضاعفه أضعافا كثيرة.

وتناولت الآيات الحديث عن فئة من المجتمع تفاخرت على رسول الله صلى الله عليه وسلم بإسلامها، وامتنت عليه بهذا، متناسية أنها هي نفسها المغبوطة بهذه الهداية وأن نفع ذلك يعود عليها في الدنيا والآخرة.

وعليه، لا يكفي إدعاء الإيمان، دون أن يكون لهذا الإدعاء ما يدعمه من الأفعال الحقيقية التي يظهر أثرها واضحا في جميع أركان المجتمع، إذ لابد من إيمان حقيقي لا يرد عليه شك ولا ارتياب، ولا يتلجلج فيه القلب والشعور، والذي ينبثق منه الجهاد بالمال والنفس في سبيل الله، (قطب، ١٩٨٦م) وهذا بدوره يعلمنا أن المجتمعات لا تبنى ولا تزدهر إلا بالكد والتعب النابعين من شعور كل فرد بمسؤوليته وإتقانه لعمله، ولذا كان النبي الكريم صلى الله عليه وسلم يحذر صحابته من الركون للجدل العقيم الذي لا يثمر عملا حقيقيا على أرض الواقع، وينهى عن الإغراق في الأمور الفرعية التي لا ينبني عليها كبير فائدة، والأحاديث في هذا كثيرة منها ما رواه أبو هريرة رضي الله عنه أنه سمع رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول: " ما نهيتكم عنه فاجتنبوه وما أمرتكم به فافعلوا منه ما استطعتم، فإنما أهلك الذين من قبلكم كثرة مسائلهم واختلافهم على أنبيائهم" (مسلم، ١٩٧٨).

إن "المؤمن بالله غير المرتاب بوعده ووعيده يكون له سائق من نفسه إلى طاعته، إلا أن يعرض له ما يغلبه عليها أحيانا من ثورة شهوة أو سورة غضب، ثم لا يلبث أن يفئ إلى أمر الله ويتوب إليه مما عرض له" (٢٠، ج٩، ص٥٨٨)، فالحافز الذي تحدثه العقيدة أقوى من أي حافز آخر، وهو ما يفسر لنا

بوضوح وجلاء كيف أن ذلك المجتمع الذي لم يكن عدد أفراده يزيدون عن مائتي إنسان مستضعف قبل الهجرة النبوية، قد استطاع بعد أقل من ربع قرن أن يحول تلك المجتمعات المترامية في جزيرة العرب إلى مجتمع مسلم واحد، ويصهرها في بوتقة واحدة!.

وما ذاك إلا لأن القوم قد طبقوا روح الإسلام في واقعهم، وأخذوا على عاتقهم نشر رسالته العالمية التي تقوم على تعبيد الناس لربهم الذي خلقهم، وتحريرهم من الجهل وعبودية البشر، تلك الرسالة البعيدة عن المطامع الذاتية والمنافع الشخصية.

إنه بحق ذلك المجتمع الحي، الذي قامت العلاقات بين أبنائه على أساس القيم السليمة، وهو يشبه بهذا البذرة الحية التي تملك القدرة على امتصاص ما حولها. (المدرسي، ١٩٨٢م).

والناظر في أرجاء الكون يجد بعض المجتمعات التي ينشغل أتباعها بإطلاق الشعارات والهتافات ويقدمونها على العمل الجاد، فتراها بعد حين لا تصمد أمام هزة تعصف بكيانها، وهو ما رأيناه واقعا في مجتمعات المعسكر الشرقي التي كانت تدور في فلك الإتحاد السوفياتي السابق، فما إن حانت الفرصة حتى انطلق الناس من عقالهم غير آبهين بتلك الشعارات ولم يقيموا لها وزنا، فكانت النقمة عظيمة على العهد السابق الذي أشغلهم بالشعارات الجوفاء والأفكار التي لم يكن لها نصيب على أرض الواقع.

المطلب الثالث: المقوم الاجتماعي

يتكون المجتمع من أفراد يحرصون على مجتمعهم مثل حرصهم على حياتهم، ويتفاعلون معه بإيجابية، ولا يتصور اعتزالهم له إلا في حالات شاذة ووضع غير سليم.

وفي هذه الحالة من التفاعل والاحتكاك يغدو تصور المجتمع خاليا من كل عيب أو تنازع بين أفراده ضربا من الخيال، وتصورا خاطئا لا يمكن أن يتحقق إلا في ظل النظرات الفلسفية المثالية الخيالية، لأن هذا يخالف طبيعة البشر وتفاوتهم في تقبل التعاليم وتنفيذ الأحكام وتجاذب معاني الخير والشر، وتصارع الشهوات والأشواق الروحية، (الخياط، ١٩٨٦م) وبما أن الحضارة الراقية هي التي ترتقي بالفرد والمجتمع معا، فقد شرع الله تعالى وسائل وقائية تحمي المجتمع من التفكك والتمزق، وهو ما يؤكد على واقعية القرآن الكريم. ومن هذه الوسائل:

أولاً: وجوب التثبت من الأخبار قبل الاعتماد عليها.

قال تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِن جَآءَكُمْ فَاسِقٌۢ بِنَبَإٖ فَتَبَيَّنُوٓاْ أَن تُصِيبُواْ قَوْمَۢا بِجَهَٰلَةٖ فَتُصْبِحُواْ عَلَىٰ مَا فَعَلْتُمْ نَٰدِمِينَ ٦﴾ (الحجرات: ٦)

هذا مبدأ عام للتثبت من الأخبار والتريث قبل إصدار الأحكام المسبقة، وبخاصة إذا كان ناقل الخبر تعتريه ريبة، وبهذا نمنع إطلاق الأخبار على عواهنها دون تمحيص، ونعزز من تماسك المجتمع، ولأهمية هذا

الأمر وخطورته جاء التأكيد عليه في مواطن عدة في الكتاب والسنة مثل قوله تعالى: ﴿ وَلَا تَقْفُ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِۦ عِلْمٌ ۚ إِنَّ ٱلسَّمْعَ وَٱلْبَصَرَ وَٱلْفُؤَادَ كُلُّ أُو۟لَٰٓئِكَ كَانَ عَنْهُ مَسْـُٔولًا ﴿٣٦﴾ ﴾ (الإسراء: ٣٦)

والراصد لأحوال المجتمعات يجد حجم المعاناة التي تنشأ عن التسرع في تصديق الأخبار والحكم بموجب ذلك، ثم تكون الحسرة والندامة ساعة فوات الأوان، فكان منهج الإسلام حكيما لحماية المجتمع ومنعه من الانزلاق والتشتت. (٢٢، ص٥٣- ٥٤)

والأمر في قوله تعالى (فتبينوا) عام لجميع المؤمنين وفي مختلف العصور والدهور وعلى مختلف مراتب المسؤولية، كما يلحظ أن الأمر محصور بالتبين والاستيثاق، وليس برد الخبر على الإطلاق، وعلى المجتمع أن ينظر في القرائن الملابسة للخبر، وإمكانية قبوله حتى لا تضيع حقوق وترد أخبار صحيحة، (ابن القيم، ١٩٧٨م) كما أن قوله تعالى (إن جاءكم) يشير إلى قلة وقوع ذلك، ثم كيف يتمكن الفاسق من المؤمن الفطن ويخبره بنبأ يأخذه على علاته ودون تحقق من أمره؟ وإذا حصل ذلك فإنه من القليل النادر، (الحرازي، ١٩٨١م) وهو ما ينبغي أن يكون، حيث أفراد المجتمع قد أوصدوا أبوابهم أمام تلك المقولات.

"وبذلك فإن الشريعة الإسلامية قد أخذت الحيطة- حفظا لسلامة المجتمع- من جانبين: جانب المتكلم إذ أمرته بالصدق وحذرته من الكذب ونبهته إلى عظم إثمه وجريرته، وجانب السامع إذ أمرته بالتثبت والتأكد مما يسمع وحذرته من أن يسارع إلى تصديق كل ما قد يبلغه فيقع في ندامة من أمره".(٢٥، ص٣٨)

وبهذا يكون المجتمع قد أرسى قاعدة صلبه في أساس بنائه الشامخ.

ثانياً: وسائل فض المنازعات الداخلية

قال تعالى: ﴿ وَإِن طَآئِفَتَانِ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ٱقْتَتَلُوا۟ فَأَصْلِحُوا۟ بَيْنَهُمَا ۖ فَإِنۢ بَغَتْ إِحْدَىٰهُمَا عَلَى ٱلْأُخْرَىٰ فَقَٰتِلُوا۟ ٱلَّتِى تَبْغِى حَتَّىٰ تَفِىٓءَ إِلَىٰٓ أَمْرِ ٱللَّهِ ۚ فَإِن فَآءَتْ فَأَصْلِحُوا۟ بَيْنَهُمَا بِٱلْعَدْلِ وَأَقْسِطُوٓا۟ ۖ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلْمُقْسِطِينَ ﴿٩﴾ إِنَّمَا ٱلْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ فَأَصْلِحُوا۟ بَيْنَ أَخَوَيْكُمْ ۚ وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ ﴿١٠﴾ ﴾ (الحجرات: ٩- ١٠)

الأصل في المجتمع المسلم أنه مجتمع نظيف، يعرف أتباعه حدود الله، وكل فرد يعرف ما له وما عليه، لكن طبيعة البشر التي لا تخلو من سلبيات، وبحكم غواية الشيطان، يمكن للشر أن يتسرب لبعض الأفراد، ولهذا كان الإسلام واقعيا في تشريعاته حين توقع حصول الخلاف والخصام والاقتتال بين أولئك في بعض الأحيان، ولم يفترض حياة مثالية لا تشوبها شائبة، فوضع حلولا عملية لفض النزاع، وكلّف مجموع الأمة أن تقوم بمهمة الإصلاح بين الفئتين المتنازعتين وفق منهج ثابت، وإذا رفضت إحداهما فإنها تكون قد حكمت على نفسها بالبغي، وعلى الجميع حينئذ مقاتلتها بإذن من الإمام، (الطيري، ١٣٢٩) لإعادتها إلى الصواب مع

احتفاظها بوصف الإيمان، واختصاص هذه الحالة الطارئة ببعض الأحكام الخاصة – كعدم الإجهاز على الجريح وقتل الأسير وتعقب المدبر- (ابن العربي، ١٩٧٤م) في حال نشوب القتال أملا في استمالة الباغي إلى صف الجماعة الأم، وكل ذلك من أجل المصلحة العليا للمجتمع حفاظا على وحدته الاجتماعية من التفرق والتشرذم.

إن مثل هذه الحلول تحمي مقومات المجتمع كي لا تعصف بكيانه النزاعات الداخلية التي تعد بحق أخطر من الاعتداء الخارجي في كثير من الأحيان، لكونها تنخر في جسمه نخر السوس في الخشب.

ولهذا نقول يجب على المسلمين وجوبا كفائيا فض النزاع مهما كلف ذلك من جهد ووقت، وتجنب الحياد السلبي، إذ لو اعتزل عقلاء القوم كل خلاف ولزموا منازلهم لما أقيم حق ولا أبطل باطل، ولكانت الفرصة سانحة أمام السفهاء لاستحلال الأموال وسفك الدماء وإثارة الفتنة في المجتمع.

قال الإمام القرطبي: " في هذه الآية دليل على وجوب قتال الفئة الباغية المعلوم بغيها على الإمام أو على أحد من المسلمين، وعلى فساد قول من منع من قتال المؤمنين واحتج بقوله عليه السلام "قتال المؤمن كفر" ولو كان قتال المؤمن الباغي كفرا لكان الله تعالى قد أمر بالكفر، تعالى الله عن ذلك..."(٢٧، ج١٦، ص٢٠٨)

وقال ابن العربي: "وهذا القتال فرض على الكفاية إذا قام به البعض سقط عن البعض الباقين". (ابن العربي، ١٩٧٤م).

وأمر القتال بين المؤمنين وإن كان يحصل فينبغي أن يكون نادرا، ولذا جاء التعبير بقوله "وإن"، كذلك قال تعالى"من المؤمنين" ولم يقل "منكم" تنبيها على قبح ذلك وتنزيه المخاطبين عن أن يقع ذلك منهم، كما يقول السيد لعبده: إن رأيت أحدا من غلماني يفعل كذا فامنعه، فيصير بذلك مانعا للمخاطب عن ذلك الفعل بالطريق الحسن، كما عبر القرآن بلفظ الماضي في قوله (اقتتلوا) و(بغت) دون المضارع حتى لا يدل على التجدد والاستمرار، وليدل على مسارعة القوم لفض النزاع. (الرازي، ١٩٨١م).

ويشار هنا إلى أن قتال الفئة الباغية مرهون بانتهائها عن العدوان وليس جزاء لبغيها كحد الخمر مثلا الذي يقام على مرتكبه وإن ترك الشرب. (البروسوي، د.ت).

ويلحظ في الآية أن الصلح في الموضع الثاني قُيّد بالعدل دون الموضع الأول، ولعل ذلك تنبيه لولاة الأمر بأن لا يبقى في نفوسهم حقد أو ضغينة على تلك الفئة الباغية فيجوروا في الحكم، (البروسوي، ....) وهذا معنى دقيق يعزز مكانة المجتمع ويقضي على أي مظهر من مظاهر الضعف الذي يمكن أن يتسلل إلى بنيانه الشامخ.

والعدل من مقومات الدولة الإسلامية، بل هو ركن مهم للدول غير المسلمة، ولكنه في المجتمع الإسلامي مضمون لكل من يعيش تحت لوائه، بصرف النظر عن عقيدته أو جنسه أو لونه، وهو منهاج عام وخطة ثابتة، وليس مجرد حوادث فردية هنا وهناك، وهو شهادة الله تعالى لذاته والملائكة وأولي العلم، قال تعالى (شهد الله أنه لا إله إلا هو والملائكة وأولوا العلم قائما بالقسط لا إله إلا هو العزيز الحكيم) سورة آل عمران آية١٨ ، ووصيته سبحانه لنبيه صلى الله عليه وسلم حيث قال (وقل آمنت بما أنزل الله من كتاب وأمرت لأعدل بينكم) سورة الشورى آية١٥ ، كما أمر به المؤمنين حتى مع أعدائهم فقال جل شأنه (يا أيها الذين آمنوا كونوا قوامين لله شهداء بالقسط ولا يجرمنكم شنآن قوم على ألا تعدلوا اعدلوا هو أقرب للتقوى واتقوا الله إن الله خبير بما تعملون) سورة المائدة آية٨، فحاز المجتمع المسلم قصب السبق وديمومة هذا الخلق العظيم، لأنه الميزان الحقيقي لرقي الأمم وتحضرها.

وبعد هذا يجئ التعبير اللطيف (إنما المؤمنون إخوة) ليؤكد على قوة الآصرة التي تربط أفراد المجتمع المسلم حتى لو اختلفوا، وهي رابطة تفوق رابطة أخوة الدم والنسب، لأن هذه الأخيرة سببها الأب الموجب للحياة الفانية، بينما أخوة الدين سببها الإيمان الموجب للحياة الأبدية في الجنة. (حجازي، ١٩٩٠م).

وهو معنى ظاهر في أحكام الإسلام، إذ لو كان هناك أخوان شقيقان، أحدهما مسلم والآخر كافر، ثم مات أحدهما، فلا توارث بينهما.

المطلب الرابع: المقوم الأخلاقي

الأخلاق في الإسلام جزء لا يتجزأ من أحكام الشريعة، لأنها أوامر ونواه بخطاب من الله جل شأنه لعباده، ولكن إفرادها بحديث مستقل من باب الاهتمام والعناية بها. (شقرة، د.ت).

وجاءت الإشارة لجملة من هذه الأخلاق عند قول الله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا يَسۡخَرۡ قَوۡمٞ مِّن قَوۡمٍ عَسَىٰٓ أَن يَكُونُواْ خَيۡرٗا مِّنۡهُمۡ وَلَا نِسَآءٞ مِّن نِّسَآءٍ عَسَىٰٓ أَن يَكُنَّ خَيۡرٗا مِّنۡهُنَّۖ وَلَا تَلۡمِزُوٓاْ أَنفُسَكُمۡ وَلَا تَنَابَزُواْ بِٱلۡأَلۡقَٰبِۖ بِئۡسَ ٱلِٱسۡمُ ٱلۡفُسُوقُ بَعۡدَ ٱلۡإِيمَٰنِۚ وَمَن لَّمۡ يَتُبۡ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلظَّٰلِمُونَ ﴿١١﴾ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱجۡتَنِبُواْ كَثِيرٗا مِّنَ ٱلظَّنِّ إِنَّ بَعۡضَ ٱلظَّنِّ إِثۡمٞۖ وَلَا تَجَسَّسُواْ وَلَا يَغۡتَب بَّعۡضُكُم بَعۡضًاۚ أَيُحِبُّ أَحَدُكُمۡ أَن يَأۡكُلَ لَحۡمَ أَخِيهِ مَيۡتٗا فَكَرِهۡتُمُوهُۚ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَۚ إِنَّ ٱللَّهَ تَوَّابٞ رَّحِيمٞ ﴿١٢﴾﴾ (الحجرات: ١١- ١٢)

إن كرامة الفرد المسلم من كرامة المجموع، ولمز أي فرد هو لمز لذات الشخص الذي قام بالفعل، فالجماعة واحدة كالجسد الواحد، ولا أدق من تعبير القرآن (ولا تلمزوا أنفسكم)، كما أن القيم الحقيقية ليست تلك القيم الظاهرة التي يراها الرجال في أنفسهم

أو تراها النساء في أنفسهن، فميزان الله تعالى يختلف عن موازين الناس.

قال القرطبي: " وبالجملة فينبغي ألا يجترئ أحد على الاستهزاء بمن يقتحمه بعينه إذا رآه رثّ الحال أو ذا عاهة في بدنه أو غير لبيق في محادثته، فلعله أخلص ضميرا وأنقى قلبا ممن هو على ضد صفته، فيظلم نفسه بتحقير من وقره الله، والاستهزاء بمن عظمه الله..."(القرطبي، ١٩٢٨م).

والسخرية آفة خطيرة ، تحمل في طياتها استعلاء وكبرياء ونفسية مريضة غير سوية، واعتراضا على خلق الله، ولا يرتضيها الإيمان، ولا تقرها التقوى، الأمر الذي من شانه تفكيك عرى الانسجام بين أفراد المجتمع، وجعل القلوب متنافرة والنفوس متباغضة، ويكفي المتلبس بهذه الأفعال زجرا أن القرآن الكريم وصفه بالظلم.

وأما التنابز بالألقاب فهو صفة جاهلية وفدت إلى المجتمع المسلم الذي ينبغي أن يخلو من هذه النقيصة، وإذا قام بها أحد أفراد المجتمع فعلى الآخرين تنبيهه وتسديده وإرشاده بالتي هي أحسن، من باب الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر.

ومن آداب المؤمن مع أخيه أن لا يظن به الظن السيئ النابع عن هواجس وشبهات وشكوك، بل عليه أن يحسن الظن به ما أمكنه ذلك، ويستثنى من هذا الأمر من كانت سيرته غير مرضية.

وهذا يعني أن لا يؤخذ الناس بالظنة، ولا يحاكمون لمجرد الاشتباه، بل هم أبرياء مصونة حقوقهم وحرياتهم، ما لم يظهر عكس ذلك.

ومن الضمانات التي تجعل المجتمع يسير على أحسن حال، نهي أفراده عن التجسس، الذي يفضي بطبيعة الحال إلى تتبع عورات الناس وكشف خباياهم، فللناس حرياتهم وحرماتهم التي لا يجوز انتهاكها بحال من الأحوال ، وهذا من شأنه أن يديم الثقة المتبادلة بين أفراد المجتمع ويحفزهم على النشاط والطمأنينة والفاعلية الإيجابية.

وحول هذا الموضوع يقول سيد قطب: " ففي المجتمع الإسلامي الرفيع الكريم يعيش الناس آمنين على أنفسهم، آمنين على أسرارهم، آمنين على عوراتهم، ولا يوجد مبرر – مهما يكن – لانتهاك حرمات الأنفس والبيوت والأسرار والعورات، حتى ذريعة تتبع الجريمة وتحقيقها لا تصلح في النظام الإسلامي ذريعة للتجسس على الناس، فالناس على ظواهرهم، وليس لأحد أن يتعقب بواطنهم، وليس لأحد أن يظن أو يتوقع، أو حتى يعرف أنهم يزاولون في الخفاء مخالفة ما، فيتجسس عليهم ليضبطهم، وكل ما له عليهم أن يأخذهم بالجريمة عند وقوعها وانكشافها، مع الضمانات الأخرى التي ينص عليها بالنسبة لكل جريمة". (خطي، ١٩٨٦م).

ويشار هنا إلى أن القرآن قد نهى عن كثير من الظن، ليحتاط في كل ظن ويتأمل في الأمر، فقد يكون بعض الظن مباحا في حدود ضيقة وظروف خاصة.

وجاء ضمن الآداب الكريمة التي تعلي من رفعة المجتمع النهي عن الغيبة، وهي ذكرك أخاك بما يكره، ووصفها القرآن بوصف منفر تشمئز منه النفوس، بحيث تجعل كل من عنده أدنى بصيرة يتورع قبل الإقدام على هذا الفعل الشنيع الذي يشبه أكل لحم أخيه الميت.

إن تلك الأخلاق الكريمة والمثل العليا إذا تم تطبيقها على أرض الواقع، فستؤدي إلى جعل أفراد المجتمع يعيشون باطمئنان وأمان لا حدود لهما، ويعزز إنتماءهم لمجتمعهم، وبالتالي يتعاونون جميعا في رفع شأنه وإعلاء مكانته، ولا يقبلون النيل منه بأي حال من الأحوال. وبخلاف ذلك فإن مقومات المجتمع تتداعى، ويصبح الفرد عامل هدم من الداخل، بل إنه قد يحبذ احتلال الأجنبي لبلاده.

"إن الانحراف في الأفراد يمكن تقويمه بسهولة عندما يفطن له، وعندما يصح عزم الأمة على التخلص منه، أما بعد أن يستشري ويصبح مرضا مستوطنا فإنه ينخر في كيان المجتمع حتى يتركه أثرا بعد عين، وهنا يفقد المجتمع كل مقومات الحضارة الإنسانية. وكل إمكانيات التقدم والرقي، لهذا كانت نظرة الإسلام إلى المجتمع نظرة واقعية تبدأ من الأفراد فتهتم بهم. وتضع البرامج لتربيتهم وتقويمهم، وتتحسس على الدوام أحوالهم وأخبارهم، لأن هذه كلها اهتمامات ينظر إليها الإسلام من حيث كونها واجبات لا يجوز التقصير فيها. ومن خلال هذه الاهتمامات يمكن تشخيص حال المجتمع والحكم عليه، والوقوف على مدى تقدمه وتطوره، أو انحداره وتأخره" (الوكيل، ١٩٨٦م).

ونلحظ اهتمام القرآن الكريم بالفرد وبالمجتمع على حد سواء وبشكل متوازن، دون تغليب جهة على أخرى، وهكذا الحضارة الراقية ترتقي بالفرد والمجتمع، ولا يرتقي المجتمع ما لم يرتق أفراده. (التومي، ١٩٨٦م).

المطلب الخامس: المقوم النفسي

إن تبادل المشاعر ليس عملا فرديا ولا جزئيا، بل هو عمل جماعي، لا يتحقق إلا بتعاون كافة الأطراف الاجتماعية على عدم ممارسة ما من شأنه أن يؤذي الأفراد نفسيا ومعنويا.

وإن سكينة النفس هي الينبوع الأول للسعادة، وليس من مصدر للسعادة سوى تقوى الله سبحانه، ولو نظرنا لوجدنا أن أكثر الناس قلقا وضيقا هم المحرومون من نعمة التقوى، على الرغم من الملذات الوفيرة التي تحيط بحياتهم.

وجاء قوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَٰكُم مِّن ذَكَرٍ وَأُنثَىٰ وَجَعَلْنَٰكُمْ شُعُوبًا وَقَبَآئِلَ لِتَعَارَفُوٓا۟ ۚ إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِندَ ٱللَّهِ أَتْقَىٰكُمْ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ ﴿١٣﴾﴾ (الحجرات: ١٣) ليذكر

بأصل النوع الإنساني، إذ لا مسوغ إطلاقا للتباهي والتعالي وإزدراء الآخرين، لأن الجميع ينتسبون إلى أصل واحد، فأبوهم واحد، وأمهم واحدة، وأصلهم التراب، ولا فضل لعربي على أعجمي ولا لأحمر على أسود إلا بالتقوى، ففيم التكبر والافتخار! وبدلا من التباهي حث على التعارف والتعاون.

وقد كان العرب يكثرون من التفاخر بالآباء والأجداد، ووصل بهم الأمر لفعل ذلك بعد الانتهاء من مناسك الحج (ابن كثير، ١٩٨٧م) فنهاهم الله تعالى عن هذا الصنيع وأمرهم بذكر الله تعالى مصدر عزهم وفخرهم، فقال سبحانه: ﴿ فَإِذَا قَضَيْتُم مَّنَاسِكَكُمْ فَاذْكُرُوا اللَّهَ كَذِكْرِكُمْ آبَاءَكُمْ أَوْ أَشَدَّ ذِكْرًا ﴾ (سورة البقرة: ٢٠٠).

والمجتمع المسلم في خطابه لا يقتصر على أتباعه فحسب ولا يقوم على العنصرية والقومية، بل يعم البشرية فاتحا لها ذراعيه لتستفيد من منهجه الرباني، وليعيش الجميع في سلام ووئام، والآيات الكريمة والأحاديث النبوية في هذا الشأن كثيرة، وواقع المجتمع يشهد بذلك، ولك أن تنظر إلى ركنين من أركان الإسلام على سبيل المثال وهما الصلاة والحج لترى كيف يقف الجميع - الغني والفقير، العربي والأعجمي، الرئيس والمرؤوس- سواسية في صف واحد ومكان واحد.

قال تعالى: ﴿ قُلْ يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنِّي رَسُولُ اللَّهِ إِلَيْكُمْ جَمِيعًا ﴾ سورة الأعراف آية١٥٨، وقال جل شأنه: ﴿ يَا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٍ وَاحِدَةٍ وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا وَبَثَّ مِنْهُمَا رِجَالًا كَثِيرًا وَنِسَاءً وَاتَّقُوا اللَّهَ الَّذِي تَسَاءَلُونَ بِهِ وَالْأَرْحَامَ إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلَيْكُمْ رَقِيبًا ﴾ سورة النساء آية١، وقال سبحانه: ﴿ لَّا يَنْهَاكُمُ اللَّهُ عَنِ الَّذِينَ لَمْ يُقَاتِلُوكُمْ فِي الدِّينِ وَلَمْ يُخْرِجُوكُم مِّن دِيَارِكُمْ أَن تَبَرُّوهُمْ وَتُقْسِطُوا إِلَيْهِمْ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُقْسِطِينَ ﴾ (سورة الممتحنة آية ٨).

وأما على صعيد الحياة العملية فيكفينا تلك الكلمة التي ما زال صداها يتردد في كل جنبات الدنيا، والتي أطلقها الخليفة العادل عمر بن الخطاب رضي الله عنه مخاطبا بها واليه على مصر حين تعدى ابنه على أحد الأقباط هناك فخاطبه قائلاً: متى استعبدتم الناس وقد ولدتهم أمهاتهم أحرارا، وستبقى تلك الكلمة شاهدة على نصاعة القيم الحقيقية التي تحلى بها ذلك المجتمع، وتدل من جهة أخرى على زيف ادعاءات بعض الدول المعاصرة في مجال حقوق الإنسان.

ومثل هذا الخلق الحميد- عدم التمييز- يحيي في النفوس الحب والمودة، ويحرر النفس من أدران الجاهلية والتعصب الأعمى الذي كان متفشيا قبل مجيء الإسلام وما زال في بعض المجتمعات الشاردة عن منهج الله، والتي تدعي التقدم والحضارة، حتى أصبح الشعار السائد: انصر أخاك ظالما أو مظلوما، بكل ما تحمله هذه الكلمة من معنى، فصحح الإسلام ذلك المفهوم حينما أوضح أن نصرة الظالم تكون بردعه عن ظلمه.

وفي المجتمع المسلم كذلك لا فرق بين الرجل والمرأة في التكاليف الشرعية، فالمحسن له أجره والمسئ عليه وزره، بغض النظر عن جنسه، وكفاءة المرء هي المقياس، إذ قد يسبق الرجل وقد تسبق المرأة ولا دخل لصفات الذكورة والأنوثة في تقديم أو تأخير، وهذا يعد ميزة للنظام الإسلامي يتميز بها عن الأنظمة الأخرى التي لا تقيم وزنا للمرأة، وفي الوقت نفسه يسهم في رفد المجتمع بطاقات هائلة طالما ظلت معطلة، ويجعل التعامل على أساس من التكامل والتنافس البنّاء البعيد عن التشاحن والإقصاء.

ومتى استقرت النفس البشرية واطمأنت وكانت راضية ونالت التقدير، فإنها تسهم في رفد مجتمعها بالطاقات الهائلة والإبداعات المتفتقة، وتشعر بالانتماء الحقيقي النابع من الوجدان، وتتهيأ للدفاع عن مجتمعها إذا تعرض لعاديات الزمان ببذل الغالي والنفيس.

إن الرضا النفسي مقوم أساسي في تماسك المجتمع، ولا ينكر أهميته إلا جاهل أو منتفع، ولهؤلاء نقول انظروا للمجتمعات – القديم منها والحديث- التي حكمت بالحديد والنار ماذا حل بها وماذا كان مصيرها؟، ولكم أن ترجعوا لسجلات القضاء الأمريكي حين برأت المحكمة هناك أفرادا من الشرطة البيض الذين قاموا بضرب أحد المواطنين السود، فما كان من السود إلا إن قاموا بمظاهرات عارمة أجبرت المحكمة على إعادة المحاكمة.

وما تزال مثل هذه القضايا قنابل موقوتة تهدد أكبر مجتمع متقدم من الناحية المادية، لتقول للجميع: إن المقومات الحقيقية لبقاء أي مجتمع هي المقومات المعنوية، ولا أدل على هذا الكلام من أن المجتمعات المسلمة وعلى الرغم من تعرضها للنكبات المتوالية والحروب الطاحنة من أعدائها، إلا أنها ما زالت تحافظ على كينونتها، ولم تستأصل شأفتها، ولم تهتز أنظمتها، ولم يؤثر ذلك على تماسكها الاجتماعي، وما كان ذلك ليتحقق لولا فضل الله تعالى أولا، ثم لما تتمتع به من رصيد في منظومة القيم المعنوية الذي ما زال يعد مصدرا من مصادر قوتها على الرغم من انحساره في بعض الأوقات، وصدق الله العظيم القائل: ﴿ وَأَلَّفَ بَيْنَ قُلُوبِهِمْ لَوْ أَنفَقْتَ مَا فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا مَّا أَلَّفْتَ بَيْنَ قُلُوبِهِمْ وَلَٰكِنَّ اللَّهَ أَلَّفَ بَيْنَهُمْ إِنَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴿٦٣﴾ ﴾ (الأنفال: ٦٣).

وهكذا أسهمت السورة الكريمة في بث مجموعة من الآداب والأحكام بشكل مختصر تمثل جملة من المبادئ تعمل على حفظ وحدة المجتمع وتحميه من الانحدار، وتجعل له كلمة مسموعة بين المجتمعات الأخرى، ولولاها ما كان له شأن يذكر، وهذه هي المقومات المعنوية، مع أننا لا نقلل من أهمية المقومات المادية، ولكنها ليست كل شيء، بل ربما كانت عامل هدم للمجتمع كما حصل مع الأقوام السابقة مثل قوم لوط وعاد وثمود وغيرهم، وما سيحصل مع كل قوم لا يقيمون للمقومات المعنوية وزنا.

ولعل الناظر في المجتمعات الغربية المعاصرة

وبخاصة المجتمع السويدي يلحظ بوادر الشقاء وظهور الأمراض النفسية والعصبية والجنسية، على الرغم من الموارد المادية الوفيرة، وفتح باب الحريات على مصاريعها لأفراد المجتمع (٣٣، ص٣٢- ٣٣). فما تفسير ذلك يا ترى؟

لاشك أن البعد عن المنهج الرباني هو السبب الحقيقي، قال تعالى: ﴿ وَمَنْ أَعْرَضَ عَن ذِكْرِي فَإِنَّ لَهُ مَعِيشَةً ضَنكًا وَنَحْشُرُهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ أَعْمَىٰ ﴿١٢٤﴾ قَالَ رَبِّ لِمَ حَشَرْتَنِي أَعْمَىٰ وَقَدْ كُنتُ بَصِيرًا ﴿١٢٥﴾ قَالَ كَذَٰلِكَ أَتَتْكَ آيَاتُنَا فَنَسِيتَهَا ۖ وَكَذَٰلِكَ الْيَوْمَ تُنسَىٰ ﴿١٢٦﴾ ﴾ (سورة طه: ١٢٤- ١٢٦)، وقال جل شأنه (وعد الله الذين آمنوا منكم وعملوا الصالحات ليستخلفنهم في الأرض كما استخلف الذين من قبلهم وليمكنن لهم دينهم الذي ارتضى لهم وليبدلنهم من بعد خوفهم أمنا يعبدونني لا يشركون بي شيئا ومن كفر بعد ذلك فأولئك هم الفاسقون) (سورة النور: ٥٥)

وهنا نقول إن المجتمع المسلم الذي يحقق شروط الاستخلاف سيبقى قويا عزيزا لا تضره الهزات التي يتعرض لها، وهو غير قابل للاندثار، ولا تنطبق عليه مقولة ابن خلدون في أعمار الدول[٣] (ابن خلدون، ١٩٨٤م).

لكن السؤال الذي يفرض نفسه بعد هذا كله، هل مجتمعنا المعاصر يمكن أن تكون له الريادة على الرغم من تلك المشكلات الكثيرة والمعقدة؟

والجواب وبكل ثقة، نعم! بشرط أن يشترك جميع أفراد المجتمع في تحقيق التقدم والازدهار، وأن يحسنوا التعامل مع قانون الأسباب والمسببات الثابت، الذي تُحكم به مجتمعات الدنيا كلها، كافرها ومسلمها دون محاباة، فإن مجتمعنا يملك رصيدا من المقومات المعنوية التي تكفل له الحصانة من الاندثار والتفكك، إضافة إلى مقومات مادية لا يستهان بها، بل أكثر مما يمتلكه أي مجتمع آخر، ولكن الحل يكمن في العقلية التي تدار بها أمور المجتمع.

ولابد من إزالة صورة الانفصام النكد التي يعيشها مجتمعنا المعاصر، بحيث صار المسلم يقرأ عن مجتمعه المثالي في بطون الكتب، وإذا خرج لواقع الحياة لا يلمس أثرا لما قرأه فيصاب بالإحباط، وربما تسرب الشك إلى نفسه، بأن هذا الذي يقرأه من وحي الخيال، وأن تلك التجربة لن تتكرر أبدا، ويصبح حينها كأنه في غيبوبة فكرية ووجدانية، وسيساق إلى المجهول.

ولا شك أن تلك الصورة ما هي إلا نتيجة حتمية من نتائج التقديم بين يدي الله ورسوله، ومع هذا فلابد من بث روح التفاؤل وبيان أن المجتمع المسلم لم يقم بالأمس ليفنى اليوم أو غدا، وأن قيامه كان

(٣) يرى ابن خلدون أن الدول لها أعمار طبيعية كما للبشر، فتنشأ صغيرة ثم تنمو لتقوى في مرحلة الشباب ثم تتراجع في مرحلة الشيخوخة، وهذا الكلام وإن كان ينطبق على الدول بشكل عام، إلا أنه لا ينطبق على الدولة الإسلامية في حال تمسكها= = بشروط الاستخلاف الواردة في الآية الكريمة، وإذا تخلت عنها فتنطبق عليها حينئذ سنة الله في الدول.

نتيجة رسالة من الله ووعد منه سبحانه، وكذا بقاؤه وتماسكه، (ولينصرن الله من ينصره إن الله لقوي عزيز) (سورة الحج آية ٤٠)

خاتمة البحث: النتائج والتوصيات

١- أهم النتائج

المجتمع المسلم يتميز عن المجتمعات الأخرى بمنهجه الرباني الذي يضمن له الحياة المثلى

شؤون المجتمع جزء لا ينفصل عن العقيدة

مقومات المجتمع المعنوية أهم وأدوم من المقومات المادية

المجتمع المادي تكون العلاقات بين أفراده غير وثيقة، وهو غير مرشح للاستقرار

التركيز على الرقابة الذاتية في الشخص المخاطب، واستجاشة مشاعره بتذكيره بصفة الإيمان والتقوى

الميزان الحقيقي الذي يقاس الناس به هو مقياس الله تعالى

المجتمع المسلم صاحب رسالة عالمية، فهو يريد الخير للبشرية جمعاء.

هلاك الأمم لم يقع بسبب كفرهم فحسب، بل كان بسبب انتهاكهم لسنن الله في الاجتماع.

ليس على وجه الأرض قوة تكافئ قوة التدين، أو تدانيها في كفالة احترام القانون وضمان تماسك المجتمع، لأن الإنسان يساق من باطنه لا من ظاهره.

النظرة الصحيحة للعلاقة بين الفرد والمجتمع أن يعطى الفرد أهميته اللائقة به كما يعطى المجتمع دوره، وتنظم العلاقة بينهما بشكل دقيق ومتوازن لإنشاء المجتمع الحي

الإنسان الذي يعيش داخل مجتمع متماسك يحس بشدة الانتماء الاجتماعي

من عظمة الإسلام أنه تدخل في حياة الناس العامة من اجتماع وسياسة واقتصاد وغيرها.

٢- التوصيات

يوصي الباحث ببث فكرة أن المقومات المعنوية هي الأهم والأرسخ لبقاء المجتمع متماسكا، وخاصة بين الشباب الذين تستهويهم المظاهر البراقة ويغترون بها، فيظنون أن معيار التقدم مرتبط بوفرة الموارد المادية.

لابد من الاستفادة من طاقات جميع أفراد المجتمع وإمكاناتهم، عن طريق إشعار كل فرد بأنه مهم ويقوم بسد ثغرة، وإشراكه في تحمل المسؤولية، وعدم إتباع سياسة إقصاء أي فئة مهما كان حجمها.

الاهتمام بالمجتمع والفرد بشكل متوازن

تعزيز قوة التدين في نفوس الأفراد، لأنها القوة الكفيلة بتطبيق التشريعات

التنبه للنزاعات الداخلية وعدم الاستهانة بمخاطرها، ومحاولة حلها بأسرع ما يمكن، لأنها تمثل خطرا على المجتمع.

المراجـــــع

ابن العربي: محمد بن عبد الله، *أحكام القرآن*، تحقيق علي البجاوي، مطبعة عيسى البابي الحلبي، ١٣٩٤/١٩٧٤ .

ابن القيم: شمس الدين ابن قيم الجوزية، *التفسير القيم*، دار الكتاب العلمية، بيروت، ١٣٩٨/١٩٧٨ .

ابن خلدون: عبد الرحمن بن محمد، *مقدمة ابن خلدون*، دار القلم، بيروت، ط٥، ١٩٨٤.

ابن عاشور: محمد الطاهر، *التحرير والتنوير*، طبعة مصورة، بدون تاريخ .

ابن كثير: أبو الفداء إسماعيل بن عمرو، *تفسير القرآن العظيم*، دار المعرفة، بيروت، ط٢، ١٤٠٧/١٩٨٧ .

أبو داود: سليمان بن الأشعث، *سنن أبي داود*، ترقيم وتبويب: هيثم نزار تميم، شركة دار الأرقم، بيروت، ط١، ١٤٢٠/١٩٩٩ .

أسد، محمد، *الإسلام على مفترق الطرق*، دار العلم للملايين، بيروت، ط٩، ١٩٧٧.

الألوسي: شهاب الدين محمود، *روح المعاني في تفسير القرآن العظيم والسبع المثاني*، دار إحياء التراث العربي، بيروت، ط٤، ١٤٠٥/١٩٨٥ .

البروسوي: اسماعيل حقي، *روح البيان*، دار إحياء التراث العربي، بيروت .

البقاعي، برهان الدين، *نظم الدرر في تناسب الآي والسور*، دار الكتاب الإسلامي، القاهرة، ط٢، ١٤١٣/١٩٩٢ .

البهي: د. محمد، *الفكر الإسلامي الحديث وصلته بالاستعمار الغربي*، مكتبة وهبه، ١٤٠٥/١٩٨٥ .

البوطي: د. محمد سعيد رمضان، *من أسرار المنهج الرباني*، مكتبة الفارابي ط٣، ١٣٩٧/١٩٧٧ .

الترمذي: أبو عيسى محمد بن عيسى، *جامع الترمذي(السنن)*، بيت الأفكار الدولية، لبنان، ٢٠٠٤ .

التومي، د. محمد، *المجتمع الإنساني في القرآن الكريم*، الدار التونسية للنشر، تونس، ١٤٠٧/١٩٨٦.

الجولاني: د.فادية عمر، *مبادئ علم الاجتماع*، مركز الاسكندرية للكتاب، ١٩٩٧

حجازي: د.محمد علي، *سورة الحجرات دراسة تحليلية*، مطبعة الحسين الإسلامية، القاهرة، ط١، ١٤١٠/١٩٩٠ .

الخياط:د. عبد العزيز، *المجتمع المتكافل في الإسلام*، دار السلام، القاهرة، ط٣، ١٤٠٦/ ١٩٨٦ .

الرازي: فخر الدين محمد بن عمر، *التفسير الكبير*، دار الفكر، بيروت، ط١، ١٤٠١/١٩٨١ .

رضا، محمد رشيد، *تفسير القرآن الحكيم، (تفسير المنار)*، دار المعرفة، بيروت، ط٢ .

الزركشي: بدر الدين محمد بن عبد الله، *البرهان في علوم القرآن*، تحقيق: محمد أبو الفضل إبراهيم، دار المعرفة، بيروت.

شقرة، محمد إبراهيم، *المجتمع الرباني*، دار البيرق، عمان، بدون تاريخ.

الطبري، محمد بن جرير، *جامع البيان في تفسير القرآن*، المطبعة الكبرى الأميرية، مصر، ط١، ١٣٢٩.

عبد الباقي: د.زيدان، *علم الاجتماع الحضري*، مكتبة القاهرة الحديثة، ١٩٧٤.

غيث: د.محمد عاطف، *علم الاجتماع*، دار المعرفة الجامعية، ١٩٩٥.

الفيروزآبادي: محمد بن يعقوب، *القاموس المحيط*، مؤسسة الرسالة، بيروت، ط٢، ١٤٠٧/١٩٨٧.

القرطبي: محمد بن أحمد الأنصاري، *الجامع لأحكام القرآن*، دار الكتب العلمية، بيروت، ط١، ١٤٠٨/١٩٨٨.

قطب: سيد، *في ظلال القرآن*، دار العلم، جدة، ط١٢، ١٤٠٦/١٩٨٦.

قطب: محمد علي، *في ظلال الحجرات*، دار القلم، بيروت، ط٢، ١٤٠٧/١٩٨٧.

المدرسي: محمد تقي، *المجتمع الإسلامي، منطلقاته وأهدافه*، دار الجيل، بيروت، ١٤٠٣/١٩٨٢.

مسلم: الإمام مسلم بن حجاج القشيري، *صحيح مسلم بشرح النووي*، دار الفكر، بيروت، ط٣، ١٣٩٨/١٩٧٨.

المصري: د. محمد أمين، *المجتمع الإسلامي*، دار الأرقم، الكويت، ١٤٠٦/١٩٨٦.

مصطفى: إبراهيم وآخرون، *المعجم الوسيط*، دار الدعوة، استانبول، ١٤٠٦/١٩٨٦.

الندوي: أبوالحسن علي الحسني، *ماذا خسر العالم بانحطاط المسلمين*، دار الكتاب العربي، بيروت، ط، ١٣٨٥/ ١٩٦٥.

الوكيل: د. محمد السيد الوكيل، قواعد البناء في المجتمع الإسلامي، دار الوفاء للطباعة والنشر، المنصورة، ط١، ١٤٠٧/١٩٨٦.

The moral constituents of the Moslem society in the light of al-Hojorat sura

Yahia Dahi Ali Shatnawi
Assistant Professor
The origin of religion department, Islamic studies and Sharia college
Yarmouk University, Irbid , Jordan

(Received 8/2/1428H; accepted for publication 4/9/1428H.)

Abstract. This research aims to find out that moral constituents is the most important factor in keeping the entity of the society together strong , incapable to collapse for any weakest joggling disaster destroy its existence, while material constituents still an additional sources and support and can be an obstacle in its way of civilization

This research presents alive sample through one of the holy quran verses , al-Hojorat sura , which talks about the main moral constituents in the society, where indeedly Assahaba society roses within these constituents, they were the best example generation for human kinds have ever been , inspite of the rareness of resources and abilities .